

أحمد وصفي زكريا في ذكراه الثالثة والعشرين

لا يعرف فضل أهل العلم إلا من خاض غمار الثقافة واستهوته متعة التعليم وحب الاطلاع، وعرف مشاقها ومتاعها من سهر وتعب وتبعات مادية مرهقة ومردود لا يتناسب مع حجم التطلعات.. والعلامة أحمد وصفي زكريا ذل ذلك كله وبرز على الساحة الثقافية في الثلاثينات من هذا القرن عالماً وأديباً ومحققاً وباحثاً زراعياً خدم التعليم الزراعي في سورية وأخلص له.

واعتنى بتطوير الزراعة في ستة أقطار عربية منذ عام 1912 وحتى عام 1951، وترك أثراً ثقافياً أضيفت إلى مآثر المبدعين في سورية العربية ومن حقه علينا أن نحياه في ذكراه الثالثة والعشرين.

لم أجالس وصفي زكريا على الأرائك، ولم يكن لي شرف التعرف عليه عن قرب لأنه من جيل وأنا من جيل آخر. ولكن جالسته في صفحات كتبه الأدبية والتاريخية وعرفته من خلال مقالاته في أعداد قديمة لمجلة المقتطف والمعرفة والشرطة، وفي كتب الحوليات الأثرية وفي بعض الصحف القديمة، وعرفت نبذه وكرمه في الصفحات الرائعة والمراثي التي سطرها عنه تلامذته ومحبه من بعده.

وجدت وصفي زكريا عوناً لي في أبحاثي عن البيئة الفراتية والبيئة السورية بشكل عام ولن أنسى تلك السطور التي أرشدتني من خلالها على كتب الرحالة الذين زاروا الفرات في الماضي وثمنت جهده في مطالعتها والحصول عليها بعد أن حصلت على بعضها بعد جهد جهيد من أحد المستشرقين الأوروبيين.

ووجدت والدكتور عارف تامر كتابه القيم: "حيوانات بلاد الشام" عوناً لنا عندما أعدنا موسوعة الطيور السورية وجاءت أهمية كتاب العلامة وصفي زكريا

في كونه حلقة قديمة قارنا من خلالها أحياء الماضي في البيئة العربية السورية بأحياء الحاضر وما طرأ عليها من تبدلات.

وأكبرت فيه صبره وجلده على تحمل المشاق في أصعب الظروف عندما جاء إلى محافظة دير الزور عام 1916 قادماً من حلب على ظهر عربة تجرها الجياد ليكافح آفة الجراد التي استشرت في هذه المحافظة في الماضي.

ولد وصفي زكريا في دمشق عام "1889م" في عائلة دمشقية متواضعة وترعرع محباً للعلم منذ صغره، وتعلم في مدارس دمشق حتى أنهى تعليمه الثانوي فيها، وارتحل إلى استنبول لتلقي العلم الزراعي في جامعتها فخرج مهندساً زراعياً عام 1912 وفور عودته إلى أرض الوطن عمل في حقل التعليم الزراعي بمدرسة سلمية الزراعية ثم مديراً لتلك المدرسة التي خرجت أوائل الزراعيين السوريين في الماضي، ثم كلف بمكافحة الجراد في دير الزور عام 1916 خلال الحرب العالمية الأولى وعين مفتشاً لأملاك الدولة عام 1924، وانتدب مستشاراً زراعياً لليمن عام 1926 ومديراً للزراعة في شرقي الأردن بعد ذلك، ومستشاراً في العراق عام 1941 ثم عاد إلى القطر بعد ذلك بأخلاقية المثقف العربي الملتزم بأهداف أمته تاركاً في البلدان التي خدم فيها آثاراً خالدة وسمعة طيبة ومثالاً في التفاني والإخلاص عاد ليعمل مفتشاً عاماً في وزارة الزراعة السورية منذ عام 1943 حتى عام 1951 تقاعد بعدها من العمل الوظيفي ولكنه لم يتقاعد عن العمل الثقافي حتى مات مكباً على الصفحات الأخيرة من كتاب "حيوانات بلاد الشام" عام 1964.

ومن مؤلفات المرحوم وصفي زكريا:

الدروس الزراعية . المفكرة الزراعية . زراعة المحاصيل الحقلية في بلاد الشام . عشائر الشام عام . الريف السوري . جولة أثرية . حيوانات بلاد الشام . من دمشق إلى صنعاء الذي جمع مقالاته المفكر العربي أحمد المضواحي .

عاش وصفي زكريا الفترات العصيبة من حياة هذه الأمة عندما شهد نهاية

الدكتاتورية العثمانية وعاصر غطوسة المستعمر الفرنسي ولم يثنه كل ذلك عن الإخلاص لمهنته وبلده. إذ كان عالماً في الزراعة والتاريخ والآثار والتراث، أمضى عمره باحثاً دؤوباً في مجال العلوم الزراعية وكان يعمل في النهار ويسهر في الليل على ضوء الشمعة والفانوس ليدون مشاهداته وليبحث في بطون كتب التاريخ والعلم عما هو مفيد وقد نقل عنه المرحوم عبد القادر عياش بيتين من الشعر كان يتغنى بهما:

يالهدف نفسي على شيئين لو جمعا عندي لكنت إذن من أسعد البشر
كفاف عيش يقيني ذل مسالة وخدمة العلم حتى ينقضي عمري

عاصر وصفي زكريا فترة العصبية التي أذكأها المستعمر فدونها بدقة وأظهر ملابسات أحداثها في كتابه "عشائر الشام" وهو لون من الجغرافية البشرية تتميز به البيئة العربية في السابق ومما ساعد وصفي زكريا على النجاح إلمامه بالتركية واللغة الفرنسية واهتمامه بأداب العربية. قضى وصفي زكريا أيامه الأخيرة متوكئاً على عصاه ينتقل من تلة إلى أخرى لينقب عن آثار نهر مندثر أثبت مكانه في نشرات الحوليات الأثرية السورية.

مات شهيد القلم في الحادي والعشرين من نيسان عام 1964 وهو ممسكاً بقلمه وذهب دون أن يحظى بالتكريم اللازم لا في حياته ولا بعد مماته وفقدنا بموته عالماً وأديباً.